الأميرُ، نحو المستقبلِ إلى أن يأتي الفجرُ

- «ما الذي حدثَ هنا؟».

توقَّفَ خالد مذهولًا بالقربِ مِن البوابةِ الشماليةِ لقريةِ مشَّى. مع قدومِ الليلِ أتى هواءٌ باردٌ مِن ناحيةِ الجبلِ، وتشكَّلَ الضبابُ العاديُّ في هذه الأنحاءِ، فغلَّفَ الغابةَ عن الأنظارِ وكشفَ فقط أجزاءً مِن القريةِ. ووقفَ خالد يرى أعمدةَ الدخانِ صاعدةً إلى السماءِ السوداءِ ولا يسمعُ صوتَ حياةٍ، فقط صوتَ التهامِ النيرانِ لما تبقى مِن المباني وصوتَ سقوطِ أساساتها.

- «هل حرقوها وانتهى الأمرُ؟».

سألَ خالد، ولكن ليون لمْ يستطع الإجابةَ.

- «هل تأخَّرتُ؟».

قالَ ليون: «لن تعلمَ إلا إذا تفقَّدتَ المكانَ، قد يكونُ هناكَ ناجون».

-«حسنًا».

- «إذًا، سأذهبُ أنا؛ عليَّ اللحاقُ بالعربةِ».

- «شكرًا لكَ على كلِّ ما فعلتَ، حقًا، لقد أنقذتَ حياتي».

- «لا تشكرني».

أجابَ ليون وهو مؤمنٌ بأنهُ لا يستحقُّ هذا الشكرَ؛ فلو أن محمد لمْ يترجهُ، ولو أن هدفهُ لمْ يتماشَ مع إنقاذِ خالد، لما أقدمَ على مِثْلِ هذا الفعلِ.

قالَ ليون: «احترس في تحركاتكَ؛ فقد يهاجمكَ الجنودُ بالقريةِ».

أومأ خالد، والتفَّ بالحصانِ، وأوشكَ على الإنطلاقِ ناحية القريةِ، ولكن ليون أوقفهُ بقولهِ: «انتظر، إن سألني محمد عنكَ...».

- «أعطِهِ هذه. قل لهُ أني أرسلها هديةً، وأني حيٌّ».

مدَّ خالد يدهُ بساعةٍ ذهبيةٍ صغيرةٍ، واستلمها ليون، ثم افترقَ الاثنان، فاتجهَ خالد إلى القريةِ بينما انطلقَ ليون في الجهةِ المعاكسةِ، تابعًا الطريقَ ليلحقَ بالعربةِ والباقين.

وبعدَ أن ركضَ الحصانُ فترةً قصيرةً، لاحت في الأفقِ، تحتَ السماءِ الصافيةِ والنجومِ، العربةُ التي قادها محمد، وظهرت ثلاثة أحصنة تسير بجانبها. وباقترابهِ أكثر، وجدَ ليون نورة وليَا ومحمد على ظهرِ ثلاثةِ الأحصنة، ووجدَ على وجوههم ابتساماتٍ عريضة حالما رأوهُ، فاطمأنَّ أن كلَّ شيءٍ على ما يرام.

- «لقد تأخرتَ!».

صاحت بهِ نورة فجأةً عندما رأتهُ، ثم نزلت برأسها تجاهَ ظهرِ حصانها فتقريبًا نامت فوقهُ، وقالت: «تتباطأ، وفي النهايةِ نحن نقلقُ».

- «ما أمرها؟».

سألَ ليون، فأجابت دنيا: «لا مشكلة؛ نورة... عندما تنتهي المهمةُ تصيرُ هكذا... حقًا إنها كالطفلةِ!».

ردَّ ليون: «لا أستطيعُ تقبُّلَ الكلامِ وهو يأتي منكِ أنتِ».

- «هل تقصدُ أني طفلةٌ؟! ستدفعُ ثمنَ الكلمةِ! سيتحدثون عن المنقذةِ التي قتلت مَن وَجبَ إنقاذهُ!».

ضحكَ ليون ضحكةً خافتةً وسارَ بجانبِ دنيا بحصانهِ، ثم جاءَ محمد ليضيفَ جزءًا مِن الجديةِ إلى الحديثِ، متسائلًا: «هل خالد بخيرٍ؟».

أومأ ليون، ثم قالَ: «عادَ إلى القريةِ ليتفقدَ أمرها».

- «لأن لهُ عائلة تنتظرهُ».

لمْ يعلمْ ليون هل رأى محمد ما حلَّ بالقريةِ أم لا، فلمْ يستطعْ أن يعلِّقَ، وقالَ: «لقد تركَ لكَ هذه».

أخذَ محمد الساعةَ، ولمْ يُبدِ ردَّ فعلٍ.

سألت دنيا: «لا بدَّ أن الساعةَ مميزةٌ، أليس كذلكَ؟».

- «لا أعلمُ».

- «حقًا؟ وأنتَ صديقهُ المقرَّبُ؟».

ابتسمَ محمد وقالَ: «ربما كذبتُ عندما قلتُ أنهُ مقرَّبٌ... لستُ مِن هذه الأنحاءِ؛ فأنا مِن غربِ البلادِ، لقد انتقلتُ للعيشِ هنا مع بنتي منذ عدةِ شهورٍ، ومنذ انتقالنا، لمْ يكنْ هناكَ رجل أطيب مِن خالد. مع أن بقيةَ القريةِ تحفَّظت منا لأننا غرباءُ، عاملنا خالد كأنما يعرفنا منذ

سنين؛ لذلكَ، أردتُ في النهايةِ، على الأقلِّ، ألا أتسببَ بضررٍ لجاري الذي عاملني بمثلِ هذه الطيبةِ... كل ما فعلتهُ كانَ تصحيحَ خطأ، ولا أدري... قد يعودُ ولا يجدُ عائلتهُ فأكونُ قد ضررتهُ».

جاءَ صوتُ سامح مِن العربةِ: «ما فعلتَ هو ما يُدعى (المروءة)».

ضحكت دنيا وقالت: «أيها العجوز، كنتَ تتنصتُ!».

- «مَن تنعتين بالعجوزِ؟!».

سلَّمَ ليون على سامح، ورأى سلمى الصغيرةَ -بنتَ محمد- نائمةً بجانبهِ، فتذكَّرَ وسألَ: «وهل قررتَ يا محمد أين ستتجهان الآن؟».

تكلَّمَ محمد بترددٍ: «أجل...».

قاطعهُ سامح قائلًا: «لقد قررتُ تعيينَ طبَّاخ جديدٍ عندي، طباخ يتخصصُ في وضعِ السمِّ كمكونٍ أساسيٍّ للوجباتِ».

ضحكَ الجميعُ إلا محمد الذي شعرَ بقليلٍ مِن تأنيبِ الضميرِ إلى أن أخبرهُ سامح بأنهُ يمزحُ.

وكما بدأ الضحكُ عادَ الهدوءُ، وشعرَ ليون بشيءٍ مِن الدفءِ لأن الجميعَ استقبلهُ بمثلِ هذا الترحابِ والابتسامِ، ثم أُخبِرَ بأن القافلةَ الصغيرةَ ستظلُّ على سفرها إلى أن تعبُرَ الحدودَ وتصلَ إلى أولِ قريةٍ في ألسندا، كما قالَ سامح:

- «سنسيرُ إلى أن نصلَ إلى قريةِ دِنْت، وهناكَ سأُطلعكَ على كلِّ شيءٍ. المهمُّ الآن هو أن نصلَ إلى الأمانِ النسبيِّ».

وهو يسيرُ في الطريقِ الممتدِّ مع امتدادِ السهلِ الأخضرِ في تلك الليلةِ، تذكَّرَ ليون قليلًا رحلاتِ الصيدِ التي خرجَ فيها مع أصدقاءِهِ وخادمهِ الخاصِّ، وقتها تعرفَ على هذه الطبيعةِ ولكن بوجهٍ آخر، بوجهٍ أمدَّهُ بالمتعةِ وهو يصطادُ الحيواناتِ البريَّة ويتنافسُ في أساليبِ السيفِ والقوسِ والسهمِ، مع الأصدقاءِ المقربين مِن العائلةِ الملكيةِ.

-«قائد!».

أعادَ صوتُ دنيا ليون إلى الوقتِ الحاضرِ، فنظرَ إليها وسألَ: «قائد؟».

أجابت دنيا: «قررتُ مناداتكَ هكذا مِن الآن، ألستَ أنتَ القائدَ؟».

- «ربما كما تقولين... هل هذا يعني أني اكتسبتُ احترامكِ كشخصٍ مناسبٍ للقيادةِ؟».

- «لا أريدُ أن أجعلَ منكَ متفاخرًا، ولكن أجل... كنا نظنُّ أنكَ...أا... شخصٌ مختلفٌ، ولكن في النهايةِ، لا بأسَ بالخطةِ التي وضعتها. كما أني أرى سيفًا جديدًا معكَ».

أشارت دنيا إلى دورندال مهنئةً، ثم قالت: «ولكن عندي اعتراضٌ كبيرٌ!».

ضحكَ ليون وسألَ: «وهو؟».

- «لمْ تُشركني في أيِّ شيءٍ! حتى الآن، مع أني واحدةٌ منكم، لمْ يخبرني أحدٌ بالتفاصيل! لا أعلمُ إلا أنهُ كان عليَّ أن أهاجمَ الراميين إذا أرادا تفقُّدَ جثثنا!».

-«حقًا؟».

- «أجل! لقد تكلمتَ بسرعةٍ مع البقيةِ في ساعتها، وتركتموني ألعبُ مع سلمى! وسامح العجوزُ -أجل، أقول عجوزًا- رفضَ أن يخبرني بشيءٍ. أولًا، كيفَ متَّ؟ أو كيف أقنعتهم بذلكَ؟».

أجابَ ليون بسؤالٍ: «إذا ماتَ شخصٌ بلا جروح، كيف يتفقدُ الآخرون موتهُ؟».

- «لا تُجِبني بألغازٍ! أنا وحدي يسمحُ لي بالإجابةِ بها!».

- «نبضُ القلبِ».

-«النبضُ؟».

- «أجل، يمكنُ لأيّ أحدٍ أن يتفقدَ النبضَ عند معصمِ الإنسانِ ويتأكدَ مِن موتهِ».

ضحكت دنيا وقالت: «وأنتَ أوقفتَ نبضكَ؟».

قال ليون: «بالضبطِ».

-«كيف؟».

-«بهذه».

أخرجَ ليون كرةً مطاطيةً صغيرةً مِن جيبهِ، وقال: «أمانةٌ يجبُ أن أعيدها إلى سلمى. هذه الخدعةُ يمكنُ لأيّ أحدٍ أن يقومَ بها. عندما رأيتُكِ تلعبين مع سلمى تذكرتُ: في طفولتي زارَ ساحرٌ متجوّلٌ القصرَ وأذهلَ الجميعَ بقولهِ أنهُ يمكنهُ التحكُّمَ في قلبهِ، ثم ليثبتَ قولهُ جعلني

أتفقدُ نبضهُ مرةً فأحسستُ به، ثم بعدَ ثوانٍ تفقدتُ النبضَ ثانيةً فلمْ أجدهُ».

- «وأنتَ استخدمتَ الخدعةَ نفسها؟».

كانت دنيا تستمعُ باهتمامٍ شديدٍ يُرى في عيون الأطفالِ عندما يجذبهم شيءٌ ما.

أجابَ ليون: «أجل، كل ما تحتاجينهُ هو أن تضعي كرةً مطاطيةً -أو شيئًا مشابهًا- تحتَ إبطكِ وتضغطي عليها، وفي ثوانٍ سيختفي نبضُ قلبكِ مِن معصمكِ».

سألت دنيا: «وماذا بعدَ ذلكَ؟».

أجابَ ليون: «لا شيءَ؛ حالفني الحظُّ وتفقدَ الجنودُ معصمي وظنوا أني ميّتٌ. الجزءُ الأهمُّ أتى قبلَ ذلكَ، فعندما نادى محمد الرماةَ لينزلوا إليهِ، انتقلتُ إلى عربةِ لِيَا المملوءةِ بالدمى، وانتقلت لِيَا لتختبأ تحتَ العربةِ -متمسكةً بأرضيتها الخشبيةِ مِن الأسفلِ-، أما نورة فتسللت خارجَ القريةِ بمفردها. نهايةُ القصةِ... إن سألتني، نحن محظوظون أن مثل هذه الخطةِ نجحت».

- «ها أنتَ تقللُ مِن شأنِ أعمالكَ ثانيةً».

- «المهمُّ الآن أن ننظرَ إلى ما ينتظرنا بالمستقبلِ...».

بعدَ يومين، في الصباحِ الباكرِ، وصلَ ليون ومَن معهُ إلى قريةِ دِنْت، أولى قرى ألسندا، بعدَ عبورِ الحدودِ بين ألسندا وديمنتيا. بعثَ

سامح لِيَا لتتفقدَ الأوضاعَ بالقريةِ، وعندما عادت تؤكِّدُ أمنها، قادَ سامح الجميعَ إلى نُزُلٍ صغيرٍ.

كانت قريةُ دِنْت صغيرةً -أصغرَ مِن مشَّى-، ولكنها كغيرها مِن القرى الحدوديةِ تميَّزت بسورٍ خشبيٍّ محيطٍ بها كليًّا وكذلكَ ببيوتٍ مِن الخشبِ فقط. ووسطَ هذه البيوتِ كان النزلُ الصغيرُ، الذي سعدَ صاحبهُ الوطنيُّ باستضافةِ الضيوفِ، بلا أن يسألَ أيَّ أسئلةٍ.

وفي حجرةِ استقبالِ النُزُلِ، كان ليون على وشكِ أن يتركَ الجميعَ ليرتاحَ بغرفتهِ بقيةَ اليومِ، حين تفاجأ بصوتِ طبقٍ يقع على الأرضِ وينكسرُ.

- «صاحب السموّ!».

سمع ليون الصوتَ في حجرةِ الاستقبالِ الخاليةِ مِن غير مرافقيهِ، فنظرَ ناحيتهُ، ولكنهُ لمْ يسعهُ الوقتُ ليرى مَن وقفَ هناكَ؛ في اللحظةِ التاليةِ، أسرعَ شخصٌ ما باحتضانهِ باكيًا.

ذُهِلَ ليون لحظةً، ثم قالَ: «إلياس؟ هذا أنتَ؟».

لمْ يهدأ الفتي الذي كان بسنِّ ليون، وأكملَ بكاءهُ قائلًا: «الحمدُ لله على سلامتكَ، على عودتكَ! الحمد لله!».

ووسطَ كلماتهِ، وخزَ محمد سامح في جنبهِ، وسألهُ بصوتٍ خافتٍ: «مَن هذا؟».

أجابَ سامح: «إلياس، خادمُ الأميرِ ليون الخاصُّ، تربَّى معهُ منذ الصغرِ ليكونَ خادمًا وفيًّا طوالَ العمرِ... أما لليون، فهو كالأخ الصغيرِ».

كان إلياس يرتدي ملابس عامة الناسِ البسيطةَ، ولمْ يظهرْ عليهِ ما يميزهُ غير شعرهِ الأبيضِ، الذي تفرَّقَ مِن منتصفِ رأسهِ ليغطيها كلها ويصلَ إلى عينيهِ الخضراوتين.

تحدَّثَ ليون أمامَ الباكي: «اهدأ يا إلياس، أنا بخيرٍ. ماذا عنكَ؟».

- «أنا بخيرٍ لأنكَ بخيرٍ».

ابتسمَ ليون ووضعَ يدهُ على كتفِ إلياس الذي توقَّفَ عن البكاءِ.

- «أجل! صاحب سموٍّ—».

- «كم مرةً قلتُ لكَ في حياتي أن تناديني ليون؟».

- «الأميرةُ، يجبُ أن—».

قاطعَ سامح كلماتِ إلياس، قائلًا: «لكلِّ شيءٍ وقتهُ، دع الأميرَ يرتاح الآن يا إلياس».

ترددَ إلياس لحظةً، ثم غلبت وظيفتهُ على إحساسهِ، فانحنى وقالَ: «عذرًا، صاحبَ السموِّ».

تنهدَ ليون وقالَ: «يبدو أنكَ أنتَ يا سامح مَن تحملهُ على التصرُّفِ بهذه الرسميةِ الزائدةِ».

تجاهلَ سامح التعليقَ وأكملَ: «ارتح إلى المساء، وحينها لنا حديثٌ».

جلسَ ليون وسامح بطاولةٍ في حجرةِ استقبالِ النُزُلِ في أولى ساعاتِ المساءِ، وباستثناءِ إلياس الذي وقفَ بجانبِ ليون، كانت الحجرةُ خاليةً تمامًا مِن البشرِ، أي مكانًا مناسبًا ليتحدَّثوا في هدوءٍ.

بدأ سامح: «إن أردتَ أن تعصِفَ بالعاصمةِ كلها وتُنقذَ الأميرةَ نادين، فلا مانعَ عندي. ولكن عندي طلبٌ سأطلبهُ منكَ الآن».

-«أجل؟».

- «في طريقنا للعاصمةِ، سنتوقَّفُ في محطةٍ على الطريقِ، جبل سَوَاصَخْر. هناكَ أمرٌ يجِبُ أن أتحققَ منهُ هناكَ وأريدكَ معي... فكما ترى، وصلني رسولٌ اليومَ بأجددِ الأخبارِ...».

استمرَّ سامح في الكلامِ، ولكن ذهنَ ليون توقَّفَ عند كلمة (جبل سَوَاصَخْر)، وأخذَ الاسمُ يُعادُ في ذهنهِ إلى أن صارَ صدى صوتٍ بعقلهِ، ثم جاءَ صوتٌ آخر -صوتٌ سمعهُ مِن قبل- يقولُ: «أريدُ لقاءكَ... أريدُ لقاءكَ!».

فكَّرَ ليون: *«إنهُ ذلكَ الصوتُ... نفسهُ الذي سمعتهُ في قتالي مع قاسم الجراح...»*.

وبعدَ هذه الفكرةِ الأخيرةِ، صارَ ذهنُ ليون صافيًا، واختفت كلُّ الأصواتِ، إلا صوتُ سامح وهو يقولُ: «ليون، ما الأمرُ؟»، وبعدهُ صوتُ صياحُ إلياس: «صاحب السموِّ!».

سقطَ ليون مِن كرسيهِ إلى الأرضِ، وأسرعَ إلياس ليتفقدهُ.

في ذهنِ ليون صدَّى صوتٌ: «لأني أحبكَ».

- «إنهُ لا يفيقُ! ليون!».